خصائص القرآن الكريم

تأليف

أ. د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي

أستاذ الدراسات القرآنيّة

كُليّة المعَلمين ـ الرياض

مكتبة العبيكان

الطبعة التاسعة

١٤١٧هـ/١٩٩٧م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

توزيع

مكتبة العبيكان

الرياض ـ العليا ـ طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

طبع هذا الكتاب حق لكل مسلم
يريد أن يطبعه
وقفاً لله
تعالى

الطبعة التاسعة

١٤١٧هـ / ١٩٩٧م

عنوان المؤلف

المملكة العربية السعودية ـ الرياض هاتف ٤٧٦٦٢٧٩

ص.ب ١٥١٧٦ الرياض ١١٤٤٤ السعودية

صدر الإذن بطبع هذا الكتاب من رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد برقم ١٥٠٤/ ٥ وتاريخ ٧/ ١١/ ١٤٠٨

ومن المديرية العامة للمطبوعات ـ وزارة الإعلام ـ بالرياض برقم ٦٥٦٤/ م وتاريخ ١٢/ ١١/ ١٤٠٨

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله يخص من شاء من عباده بما شاء من المحامد، ويوفق إلى الخير خلصاءه.

الحمد لله جعلنا من أمة محمد ﷺ وخصها بين الأمم، فجعلها خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وأرسل إليها خير رسله نبيه وصفيه وخليله محمد بن عبد الله ﷺ، وأنزل عليها خير كتبه وأفضلها وأسماها وأعلاها.

أما بعد...

حين أنزل الله القرآن الكريم وأرسل به نبيه محمداً ﷺ، لم يرسله إلى أمة نبغت في علومها وتفوقت في معارفها أو بلغت شأواً في الرقي والتقدم..

إذاً لوجد المشكِّكون فجوة ينفذون منها لإنكار فضل القرآن ولنسبوا أثره إلى واقع الأمة وحالها، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أرسله إلى أمة كانت قبائل متشتتة، لا صلة دينية توحد صفوفهم، ولا مصلحة اقتصادية تضمهم، ولا رابطة سياسيَّة تربطهم، ولا سلام يسود بينهم ديدنهم توارث العداوات والأحقاد، وشغلهم الحروب والغارات، ودأبهم السلب والنهب، ومعبودهم الأصنام والأوثان.

إن نظرتَ إلى مجتمعهم وجدتهم قبائل رحَّل، تشتعل الحروب بينهم عشرات السنين لأوهى الأسباب، واسألوا داحس والغبراء والبسوس إن شئتم.

وإن نظرت إلى اقتصادهم وجدته في أدنى الدرجات، لا يعرفون من التجارة إلا أطرافها، وجل مالهم الإبل والغنم، ينتقلون بها من مرعى إلى آخر، يتغذون بلحومها، ويشربون ألبانها، ويتدثرون بأصوافها، اللهم إلاَّ قليلاً من رجالهم

يرحلون صيفاً إلى الشام وشتاءً إلى اليمن، يقايضون بأنعامهم ونتاجها حلياً وأقمشة، وهؤلاء وأولئك لا يعرفون سبيل الصناعة والإنتاج.

ولو نظرت إلى علومهم لرأيتهم على أقصى درجات الجهالة، أُمّة أُميّة لا تقرأ ولا تكتب، ولا يعرف أنهم برزوا في علم من العلوم، ولا في فنٍّ من الفنون، اللهم إلاّ الشِّعر! وما يغني الشعر في مثل هذا المجتمع؟ وما الحاجة إليه؟! إلاّ أن تكون لإيقاد نار حربٍ أو زيادة اشتعالها، أو لفخر جاهلي.

ولو نظرت إلى سياستهم لم تجد لهم علاقات سياسية بالدول المحيطة بهم كفارس، والروم، والقبط، والأحباش، اللهم إلاّ علاقات أفراد لا تشكل سياسة عامة، ولم تمدَّ الدول المجاورة أيديها لهم لإيجاد علاقات سياسية لا لشيء إلاّ لأنهم خفاف الوزن في نظر الأمم جميعاً، إضافة إلى أن موقعهم الجغرافي بعيد عن مضطرب الأمم المتمدنة حينذاك.

أيها الأحبة...

لست هنا أؤرخ لهذه الأمة في تلك الفترة، ولكني أريد أن أقدم صورة واضحة لهذا المجتمع حتى نعرف مدى التأثير الذي أحدثه القرآن فيهم، ونعرف التأثير الذي يمكن أن يحدثه في الأمم التالية.

نزل القرآن على هذه الأمة بواسطة نبيها محمد ﷺ فلم تلبث إلاّ سنواتٍ قلائل حتى دبَّت فيها الحياة وسَرت في جسدها سريانها في الأرض الخاشعة إذ نزل عليها الماء فاهتزَّت وربَت وأنبتت من كلِّ زوجٍ بهيج.

فوحَّد كلمتها، وجمع شملها، وسارت تحت راية واحدة راية الإيمان ونهضت نهضة قوية، وسارت وفودها في العالم سيرة القوي الأمين، وصالت جيوشها صولة القادر العادل، فإذا بها أمة الأمم وجالية الظُّلْمِ والظُّلَم وصاحبة السيف والقلم.

ولا يزال التاريخ يحدثنا عن مآثر هذه الأمة في البلاد المفتوحة ويسطر بأحرف

من نور فترة الحكم الإسلامي لهذه الدول، وسيظل ـ بإذن الله ـ تاريخها زهرة التواريخ، وستظل آدابها ينبوع الآداب والأخلاق.

وما علينا والرسول ﷺ قد بيَّن أن قرنه خير القرون، فبالله عليكم بأي شيء ارتقى هذا الجيل من الجاهلية التي ألمعنا إلى شيء من صور جاهليتها إلى هذه المنزلة التي صارت بها الأمة المثاليَّة.

لا شكَّ أنَّ الأصابع ستشير بأكفِّها:ـ إنَّه القرآن، فلنبحث عن السِّر في القرآن إذاً.

كيف خرَّج القرآن هذا الجيل المميَّز في تاريخ الإسلام، بل في تاريخ البشريَّة كلِّها، ثم لم يعد يخرِّج مثل هذا الجيل مرَّة أخرى؟!.

لا أنكر وجود أفراد في الأجيال التالية يقتربون من أفراد ذاك الجيل، لكن لم يحدث قط أن تجمَّع مثل جمع الصحابة في جيلٍ واحدٍ كما تجمَّعوا في الجيل الأوَّل[1].

هذه حقيقة لا تنكر، فلنتأمل فيها عَلَّنا نصل إلى سِّر نهضتها فنأخذ به في وقتٍ نحن أحوجُ ما نكون إليه.

تُرى ما سِرُّ نهضة هذه الأمَّة؟ القرآن هو هو ما يزال بين أيدينا كما أنزل. وسنَّة الرَّسول ﷺ لا تزال بين أيدينا أيضاً، ولم يغب عنا إلَّا شخص الرسول ﷺ، فهل هو سرُّ النهضة؟!.

لو كان الأمر كذلك لما كانت دعوته للناس كافَّة بل كانت مربوطة بشخصه وبحياته، ولَتَكَفَّل الله بإبقائه حياً فعلم أن الأمر ليس مربوطاً بشخصَ الرَّسول ﷺ.

فلنبحث إذاً عن سبب آخر.

---

(١) انظر معالم في الطريق: سيد قطب، ص١١.

إن تعهد الله سبحانه وتعالى بحفظ القرآن بقوله: ﴿إنَّا نحنُ نزَّلنا الذِّكر وإنَّا لهُ لحافظون﴾ مع جعله سبحانه الدعوة للناس كافَّة، يدلُّ على أنَّ مناط الدَّعوة هو القرآن الكريم، وأنَّ سرَّ بقائها هو في بقاء القرآن[1].

وإذا كان الأمر كذلك، فإنَّ سؤالاً عريضاً يكاد يسد الأفق يقول: لِمَ لَمْ يتحقق للأجيال التالية ما تحقَّق للجيل الأول ما دام القرآن هو القرآن لم يتغيَّر ولم يتبدَّل؟.

إذا ما أردنا الحصول على إجابة صادقة فلنتأمل الصلة بين الجيل الأول والقرآن من جهة، وبيننا وبين القرآن من جهة أخرى، فلعلَّ الفارق يكون هنا.

كان الجيل الأوَّل لا ينهل إلاَّ من القرآن، وهدي الرَّسول ﷺ، وما هَديهُ إلاَّ من نبع القرآن، وكانت الحضارات تحيط بالقوم حضارة الرومان، وحضارة الفرس، ومخلَّفات الحضارة الإغريقية، وحضارات أخرى قاصية ودانية، حضارة الهند وحضارة الصين.

وكانت اليهودية والنصرانية تعيش بين أظهر القوم في المدينة، وفي اليمـــن، ومـع ذلـك كان منهـج التلقي عند الجيل الأول مقصوراً بقصد على القرآن الكريم[2]، وحين أقول بقصد فإنِّي أعني ما أقول وأعيه، نعم القرآن وحده، لا شيء سواه ـ وهدي الرسول ﷺ من نبع القرآن كما أسلفت ـ.

ولذلك غضب الرَّسول ﷺ حين رأى في يد عمر رضي الله عنه قطعةً من التواره وقال له: «لو كان أخي موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي»[3].

---

(١) معالم في الطريق: سيد قطب، ص١٢.

(٢) معالم في الطريق: سيد قطب، ص١٣.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده جـ ٣، ص ٣٨٧، والدارمي في سننه ١/١١٥، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح جـ ١، ص ٦٣.

بل قال عليه الصَّلاة والسَّلام وهو يرسم لهم منهج التلقي مُظهراً حرصه على صفاء النَّبع: «لا تكتبوا عني، ومن كتب عنِّي غير القرآن فليمحه»[1].

أيُّ حرصٍ يظهره الرسول ﷺ، على صفاء النبع القرآني في فترة التكوين الأولى.

هذه ظاهرة في منهج التلقي للقرآن عند الجيل الأول ينبغي الوقوف عليها، وظاهرة أخرى نراها ترسم لنا بوضوح العلاقة بين هذا الجيل والقرآن. وهي أن هذا الجيل جيل الصحابة رضوان الله عليهم لم يكن أحدهم يقرأ القرآن لتذوق أساليب اللغة العربية، أو لمجرد الثقافة البحتة أو يحفظ آيات ليستشهد بها في المناسبات واللقاءات، أو ليتلوه في الاحتفالات والمناسبات أو ليتكسَّب في حفظه أو تلاوته، بل كان هذا الجيل يتلقَّى القرآن ليترجمه من فوره بعد فهمه إلى عملٍ جاد وتطبيقٍ كامل.

ولذلك كان الصحابي يحسُّ وهو يقرأ أنَّه إنَّما يتحمَّل واجبات وتكاليف فيقرأ من الآيات ما يستطيع حمله من تكاليفها، ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: (كان الرَّجل إذا تعلَّم عشر آيات لم يجاوزهنَّ حتَّى يعرف معانيهنَّ والعمل بهنَّ)[2].

إذاً فقد كان منهجهم منهج التلقي للتنفيذ وكان هذا المنهج وحده يفتح لهم آفاقاً من الفهم والمعرفة لا تفتح لمن سلك منهجاً غيره، وكان هذا المنهج يمزج بين أرواحهم وبين القرآن، ويخلط القرآن بذواتهم[3] فيحولها إلى منهج واقعي، ويتحوَّل الرَّجل إلى الرجل القرآني.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الزهد، ص٢٢٩٨، حديث رقم ٣٠٠٤، سنن الدارمي، جـ١ ص١١٩، ومسند الإمام أحمد جـ٣ ص١٢.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره جـ١ ص٨٠، وقال الأستاذ أحمد شاكر (وهذا إسناد صحيح وهو موقوف على ابن مسعود، ولكنه مرفوع معنى)، وانظر تفسير القرطبي جـ١، ص٣٩.

(٣) معالم في الطريق: سيد قطب، ص١٥.

خلاصة الأمر:

أنّ علاقتهم رضي الله عنهم تقوم على منهجين أساسيين:-

أحدهما:- الاقتصار على نبع القرآن الصافي والسنة المبيِّنة للقرآن.

وثانيهما:- التلقي للتنفيذ والتطبيق الفوري.

فوصلوا إلى ما وصلوا إليه.

ثمَّ ما الذي حدث بعد ذلك؟! حدث أن صبَّت ينابيع في ذلك النبع الصافي فصبَّت فلسفة الإغريق، وأساطير الفرس، وإسرائيليَّات اليهود والنصارى، ورواسب الحضارات والثَّقافات، واختلط هذا كله بتفسير القرآن الكريم، فعكَّر صفوه، فتكدَّر صفاء الجيل.

ودرس قوم القرآن لمناصب دنيويَّة وأهداف زائفة، وأغراض هابطة، وقرأه آخرون فلم يجاوز حناجرهم.

فخرَّج منهج التلقي للتنفيذ... جيل الصحابة رضوان الله عليهم، وخرَّج المنهج الآخر، الأجيال التالية فهل نتَّعظ.. وهل نستفيد ونستعيد...؟

فإذا كان هذا هو أثر القرآن الكريم في هذه الأمة، فلا عجب إذا اختصَّ بخصائص كثيرة ومزايا عظيمة، وقد اختصَّ أيضاً الدِّين الذي جاء به القرآن الكريم وهو الإسلام بخصائص عظيمة وكتب فيه الكتاب وما زالوا يكتبون، واختصَّ أيضاً بخصائص كثيرة الرسول الذي أنزل عليه هذا القرآن ﷺ، وقد تحدَّث بنفسه عليه الصلاة والسَّلام عن بعض ما أُوتي، وأدرك علماء المسلمين كثيراً غيرها، واختصَّت هذه الأمة بمزايا عظيمة ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى في آخر كتابه «فنون الأفنان» ثلاثين نوعاً منها.

وخصائص هذه الأمة، وهذا النبي، وهذا الكتاب، وهذا الدين بيِّنة لا تخفى على ذي لبٍّ، لكن العقول قد تدرك شيئاً ولا تستحضره، وقد تدرك مفرقاً ولا تجمعه، فإذا استحضر لها أو جمع حسبت نفسها لم تكن تعلمه من قبل،

فإذا ذُكِّرت ذَكَرَت وإذا عُلِّمت عَلِمَت.

وقد ذاكرت يوماً خصائص القرآن الكريم فتاقت نفسي إلى كتاب يدرسها، أو مقال يجمعها، فما وجدت على كثرة المؤلفات في علوم القرآن شيئاً من ذلك، كنت أحسب أن المؤلفات فيه كثيرة والدراسات مستفيضة فأعدت النظر وقلبت الفكر بين مخطوط ومطبوع، فما وجدت إلاَّ مُخْتَصِراً مُقْتَصِراً، أو مخرَّفاً مشعوذاً.

وفي هذا الموضوع مجال خصب يمرح فيه بعض المشعوذين والدجالين وبالتحقيق والتدقيق يذهب زغل المبطلين.

نظرت في المخطوط والمطبوع ـ ما وصلت يدي إليه ـ فوجدت المخطوط يَسِمُها بـ (الخواص) فألِّف في (خواص القرآن) العديدُ منهم يوردون فيه من الخرافات والشعوذة ما نُنزِّه كتابَ الله عنه، ونربأ أن نشير إلى أسمائها وهي كثيرة.

ويزيفونها حيناً بعبارة (أسرار خواص القرآن) وكأنَّ في القرآن طلاسم وألغازاً كانت عن الناس مخفية.

ووجدت في المطبوع شيئاً من ذلك، وشيئاً من ضلالات الصوفيَّة الذين اتخذوا التقديس والتبرّك شعاراً لضلالاتهم فإن أنكرت عليهم اتَّهموك بغمط القرآن حقَّه تماماً كما يقذفون من نهاهم عن الغلو في الأنبياء والصالحين والمزارات والقبور بأنه لا يحب أهلها، أو من أنكر عليهم الغلو في رسول الله ﷺ وإطراءه كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، بأنَّه لا يحبّ الرسول!!.

أقول إن أولئك أوردوا في خصائص القرآن ما يلائم مذهبهم الضالّ وعقيدتهم المنحرفة.

ووجدت في المطبوع خصائص للقرآن مسلّمة ومحمودة، أسسها الكتاب والسنة، والبيان المُقنع لأولي الألباب لكن ما أورده هؤلاء إما أن يكون مقتصراً على جانب واحد من خصائص القرآن، أو أن يكون مجملاً الحديث عن خصائص معدودة.

ولم أر كتاباً أفرد فيه مؤلفه خصائص القرآن الكريم معتمداً على التحقيق متثبتاً مما يقول سالماً من الأهواء والبِدَع.

فحاولت أن أجمع هنا ـ ما استطعت ـ من خصائص القرآن معرفاً بإيجاز لكل واحدة منها مبتعداً عن خرافات المخرفين وبدع المبتدعين مستنداً إلى الكتاب والسنّة، وما أقرّ به أرباب اللغة وفصحاؤها مذعنين، وأرباب العلوم والمعارف معترفين.

وقد قدمت أكثر هذه الخصائص في برنامج إسبوعي من إذاعة القرآن الكريم من الرياض، في دورة إذاعية مدتها ستة أشهر من رجب ١٤٠٨ إلى نهاية ذي الحجة ١٤٠٨.

أسأل الله أن يجعل عملي خالصاً لوجهه وأن يتجاوز لي عمّا شابه من قصور وأن يغفر لي خطيئتي يوم الدين.

إنه سميع مجيب وصلى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم. . . .

المؤلف

تمهيد:

الخصائص: جمع (الخصيصة) وهي الصفة التي تميز الشيء وتحدده. اما الخواص فجمع (خاصة) خلاف العامة. وخاصة الشيء ما يختص به دون غيره[1] وعلى هذا فـ (الخصائص) أعم من (الخواص) فكل (خاصة) تميز الشيء وتحدده، وليس كل (خصيصة) تختص بالشيء دون غيره.

وحين أردت أن اكتب في هذا الموضوع آثرت الكتابة عن (الخصائص) واعتنيت عناية بالغة بـ (الخواص) مع ما شاب هذه الأخيرة من شوائب كما أشرت إلى ذلك في المقدمة، ولم اتناول هنا شيئاً من تلكم الخرافات والشعوذة والطلاسم والألغاز.

ولم أقصر الحديث عن هذه (الخصائص) على ما فهمه بعض الباحثين وقصدوا من ورائها تحرير النص القرآني وتحديد أبعاده من حيث هو قرآن، ويريدون بذلك تمييزه عن الحديث النبوي والحديث القدسي فضلا عن كلام البشر الآخرين.

وكانت العمدة فيما حدوده ان القرآن هو اللفظ والمعنى جميعاً، فغير جائز إخضاعه إلى الرواية بالمعنى، لأنه بالمعنى فحسب لا يكون كلام الله وإنما يكون معنى كلام الله. فالخصائص عندهم مميزة لهذا القرآن بهذا المعنى.

وعلى هذا فلا يعتبرون مزايا ألفاظه وحدها أو مزايا معناه وحده أو مزايا رسمه أو فضائله أو حِكَمَه أو أحكامه أو آداب تلاوته ونحو ذلك من الخصائص.

---

(١) المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية ــ بمصر ج١ ص ٢٣٧.

وهذا خلاف ما أردت هنا فإني أريد بالخصائص كل ما يتميز به القرآن الكريم من كل وجه عن الحديث النبوي، والاحاديث القدسية، وسائر الكتب السماوية فضلاً عن سائر كلام البشر، ويشمل هذا بلاشك ما يختص به القرآن دون غيره.

فإذا عددت مثلاً من خصائص القرآن (انه متواتر كله) فإني أريد بها المزايا التي يمتاز بها، ولا يعني هذا أن لا يشترك معه في التواتر شيء ففي الأحاديث ماهو متواتر وفي غيرها ايضاً ما هو متواتر فهي إذاً من (الخصائص) بمعنى الصفة التي تميز الشيء وتحدده ولهذا قلت بَعْدُ (إن التواتر لم يكن لكتاب آخر غير القرآن)[1] ولم اطلق الاختصاص.

وحيناً أعد من خصائص القرآن الكريم (رسمه) أو (تحريم روايته بالمعنى) أو (التعبد بتلاوته) ونحو ذلك، وأريد الصفات التي لا يشترك معه فيها شيء لا من الحديث النبوي ولا من الحديث القدسي ولا من غيرهما أبداً فهي إذاً من (الخواص) بمعنى ما يختص به دون غيره.

(فإن قلت) إذا كان ما ذكرت من النوعين فلم قصرت العنوان على أحدهما فقلت خصائص القرآن الكريم ولم تقل خواص القرآن الكريم.

(قلت فعلت ذلك لأمور:

أولها: من باب التغليب

ثانيها: أن (الخواص) كما أشرت قد اصطبغت في أذهان بعض الباحثين بكتب معينة تبحث في الشعوذة والدجل والسحر، فتحاشيت هذا اللفظ.

ثالثها: ان (الخصائص) أعم من (الخواص) كما ذكرت.

---

(١) انظر ص ١٨٩ ــ ١٩٠.

وعلى كل حال فهذا مرادي، وهذا جهدي وطاقتي، فإن أصبت فالحمد لله وان أخطأت فاستغفر الله واتوب إليه على كل حال. ورحم الله من ارشدني إلى عيوبي، ومن الله أسأل التوفيق والغفران إنه سميع مجيب وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

خصائص القرآن الكريم

من خصائص القرآن الكريم:
أسلوبه

يقال للسطر من النخيل أسلوب، وكل طريق ممتد فهو أسلوب، والأسلوب الطريق، والوجه، والمذهب، يقال: أنتم في أسلوب سوء، والأسلوب الفن، يقال: أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه وان أنفه لفي أسلوب إذا كان متكبراً[1].

والأسلوب في اصطلاح الأدباء هو الطريقة الكلاميّة التي يسلكها المتكلّم في تأليف كلامه واختيار مفرداته.

وتختلف أساليب المتكلمين بعضهم عن بعض بل تختلف الأساليب عند الشخص الواحد، وكم رأينا من رجل تكون له حاجة عند آخر ويخشى منعها فيقف يصف عبارته ويختار ألفاظها، ويضيف إليها، ويحذف منها، حتى توافق قبولاً عند صاحبه، وتحدث تأثيرها في نفسه، فيستجيب له، وقد يُحدِّثُ صاحبه من غير ترتيب عبارة.. والمعنى واحد هنا وهناك لكن الأسلوب يختلف، فإذا كان لكل حديث أسلوبه فلا عجب أن يكون أسلوب القرآن الكريم خاصاً به لا يدانيه أسلوب ولا تجاريه طريقة.

ولحكمة سامية بعث الله رسوله محمداً ﷺ في أمّة كانت في أدنى درجات الجاهلية، يأخذ أحدهم أربعة أحجار يجعل ثلاثاً أثافي لقدره ثم يعيد الرابعة[2]، وينحتون الأصنام والأوثان، ويسجدون للتمرة ثمّ يأكلونها، ويئدون أولادهم ويتقاتلون فيما بينهم، لا لشيء إلّا لأمرٍ تافه حقير، ثم وبقدرة الله وإرادته، يتحوّل هذا المجتمع شيئاً فشيئاً إلى مجتمعٍ مثالي، ليس لجيل واحد، ولا لعصر واحد، ولا لقرن واحد، بل للأجيال كلها على مر العصور والقرون، فصار خير القرون، بل صار القدوة التي يجب أن يقتدي بها المسلمون.

---

(١) لسان العرب مادة (سلب) جـ١ ص٤٧٣.

(٢) انظر سنن الدارمي جـ١ ص٤.

ولا شك أن هذا المجتمع في تحوُّله من حال إلى حال قد مرَّ بدرجات عديدة يحتاج كلٌّ منها إلى أسلوب خاص في مخاطبته، والقرآن يتابع هذه التحوُّلات والتغيُّرات في هذا المجتمع ويخاطب كل حالة بما يناسبها فحين كان الكفر هو السائد بينهم مالت الآيات إلى قصر الفواصل مع قوة الألفاظ، والوقع الحاد بما يصخّ الآذان ويشتد قرعه على الأسماع، ويصعق القلوب ليوائم جو الردع والزجر والتقريع للمخاطبين، اقرأ مثلاً قوله تعالى: ﴿فإذا نُفخ في الصُّور نَفخةٌ واحدة، وحُمِلَتِ الأرضُ والجبالُ فدُكَّتا دكَّةً واحدة، فَيومئذٍ وقعتِ الواقعة، وانشقَّتِ السماءُ فهي يومئذٍ واهية، والمَلَكُ على أرجائها ويحملُ عرش ربِّك فوقهم يومئذٍ ثمانية، يومئذٍ تُعرضونَ لا تَخفى منكم خافية، فأمَّا من أوتي كتابه بيمينه فيقولُ هاؤُمُ اقرءوا كتابِيَه، إنِّي ظننتُ أنِّي مُلاقٍ حسابيه، فهو في عيشةٍ راضية، في جَنَّةٍ عالية، قُطوفها دانية، كُلوا واشربوا هَنيئاً بما أسلفتم في الأيَّام الخالية، وأمَّا من أُوتي كتابه بشِماله فيقولُ يا ليتني لم أُوت كتابِيه، ولم أدرِ ما حسابيه، يا ليتها كانت القاضية، ما أغنى عنِّي ماليه، هَلَك عنِّي سُلطانيه، خُذوه فغُلُّوه، ثُمَّ الجحيم صَلُّوه، ثم في سِلسلةٍ ذَرعُها سَبعون ذِراعاً فاسلُكوه، إنَّه كان لا يُؤمنُ باللهِ العظيم، ولا يَحُضُّ على طعام المسكين، فليس له اليوم هاهُنا حميم، ولا طعامٌ إلاَّ من غِسلين، لا يأكله إلاَّ الخاطئون، فلا أُقسم بما تُبصرون، وما لا تبصرون، إنَّه لقول رسولٍ كريم، وما هو بقول شاعرٍ قليلاً ما تُؤمنون، ولا بقولِ كاهنٍ قليلاً ما تذكَّرون، تنزيلٌ من ربِّ العالمين، ولو تَقوَّل علينا بعضَ الأقاويل، لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوَتين، فما مِنكم من أحدٍ عنه حاجزين، وإنَّه لتَذْكِرةٌ للمُتَّقين، وإنَّا لنعلم أنَّ منكم مُكذِّبين، وإنَّه لحسرةٌ على الكافرين، وإنَّه لحقُّ اليقين، فسبِّح باسم ربِّك العظيم﴾[1].

وحين ساد الإيمان وأقبلت القلوب على القرآن طالت المقاطع والآيات واسترسلت في البيان المتأني والوقع الهادىء بما يريح الآذان ويجذب القلوب ليوائم جو المحبة والاتباع والانقياد، وخذ مثلاً قوله تعالى: ﴿إنَّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفُلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس،

(١) سورة الحاقة: الآيات ١٣-٥٢.

وما أنزل الله من السَّماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وبثَّ فيها من كلِّ دابَّة وتصريف الرِّياح والسحاب المسخر بين السَّماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾[1].

ونحو ذلك من الآيات المدنية.

إنَّ في متابعة القرآن الكريم واستمرار نزوله أثناء تحوّل المجتمع من أقصى دركات الجاهلية إلى أعلى درجات الإسلام، ومن ثم تغير الأسلوب من حالٍ إلى حال، لدليلٌ على أنَّ القرآن يشتمل على أساليب صالحة لمخاطبة البشرية على كل حال.

خاصة إذا علمنا أن أسلوب القرآن ليس موجهاً إلى شخص بعينه ولا إلى جيل بعينه، بل خوطبت بالقرآن أجيال وأجيال، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وكل جيل يفهم منها ما يناسب تفكيره، ويلائم ذوقه، ويوائم معارفه ولو اختلّت فيه لفظة أو حذفت منه عبارة، أو أضيفت إليه جملة لم يصلح لمخاطبة الناس جميعاً، وهذا ولا شك إعجاز فوق إعجاز.

وأسلوب كهذا الأسلوب له ـ نفسه ـ خصائص كثيرة، انكبَّ على تحصيلها طائفة من علماء اللغة وأرباب الفصاحة والبلاغة، وما زالوا منذ نزوله يعبّون[2] من نَقَاخه وينهلون من معينه، وطال بهم الموقف ولم يرتووا ولم ينقص منه شيء حتى حفيت منهم الأقدام وعريت الأقلام ولم يقدموا مع كثرته إلاَّ قُلاًّ من كثرة ومن البحر قطرة.

ولست بالقاصد هنا حصراً لصور خصائص أسلوبه، ووجوه إعجازه، ولكني ذاكرٌ منها شيئاً بَلاًّ للشَّغاه وتَغمُّراً[3] للقلوب، ونضحاً[4] للأكباد.

---

(١) سورة البقرة: الآية: ١٦٤.

(٢) العب: أكثر درجات الشرب، انظر فقه اللغة للثعالبي، ص١٦٨.

(٣) التغمر: أقل درجات الشرب، فقه اللغة للثعالبي، ص١٦٨.

(٤) النضح: أول الرِّي، فقه اللغة، الثعالبي، ص١٦٨.